مشهد من مشاهد السياسة

على عهد الدولة الاموية

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

طبقاً لعادتها المألوفة، اصدرت كلية القديس يوسف عن العام ١٩٢٧ نشرتها العلمية المعروفة (Mélanges de l'Université S'. Joseph) وهذا المجلد هو الثاني عشر من مجموعة حلّت، من الرجال المتضلعين من العلوم الشرقية، محلّ المؤلفات الثمينة النادرة، فاستحسنها المستشرقون، واقتنتها المكاتب الكبرى

وان مجلد هذا العام يحوي، في مقالاته، درساً واسعاً بلغ عدد صفحاته ١٠٧، خصّه حضرة الاب هنري لامنس بتاريخ نشأة الدولة المروانية وخلافة مروان الاول. فاضافه حلقةً الى سلسلة مباحثه في الاسلام، وعظماء رجاله، وامّهات مدنه، وسرعة انتشاره في الشام وتوطيد دعائمه فيها، خاصةً على ايام الخلفاء الامويين.

وانه ليلفت انظار القراء، في مستهلّ كلامه في الدولة المروانية، الى وعورة مسلكه اذا ما اهتدى بالمؤرخين العرب الى معرفة الحقائق التاريخية في الشام. لان الرواة الذين اخذ عنهم مصادره، معظمهم عراقيون فيكرهون الشام واهلها ولا يحبهم امرها فيهملونه. على ان المؤرخ اذا ما اعمل الروية في مؤلفاتهم وجد فيها روايات وتعليقات لا تخلو من تفيد تاريخ الشام. وقد قام بتلك المهمة حضرة الاب لامنس، فاستقلّ مآخذه من جهابذة المؤرخين العرب واخصهم الطبري، واشار اليها في ذيل كل صفحة من صفحات كتابه، شأنه في مؤلفاته العلمية. وفسرها مستعيناً على فهمها بقرائنها، وبمعرفته للتاريخ الاسلامي العام، فاستنبط منها حججاً وبراهين ونتائج تاريخية لم يسبقه اليها الاوائل. واننا لنتوغل والقارئ في الفصل الاول من هذا الكتاب الجديد، فنحلله ونعلق عليه، عسى ان نقف على اسلوب المؤلف ونجتني مما غرست يداه آثاراً يانعة.

انتظام الامويين في الشام

في ١١ تشرين الثاني ٦٨٤ م (٦٣ هـ) مات الخليفة يزيد، وملك بعده ابنه معاوية الثاني، ولم تبلغ مدة ملكه ستة اشهر حتى توفي في العام ٦٨٤ بالطاعون الجارف. وظل امر الخلافة مبهماً، وسفينتها لا قبطان عليها، تتلاعب

بها امواج السياسة واهواء التحزبات . فبويع في الحجاز وفي مصر لخليفة مكة عبدالله بن الزبير ؛ وسعى الضحاك بن قيس ، حاكم دمشق ، في استمالة الناس اليه على امل البيعة . وكان يوسع الامويين بالشام ان يوحدوا كلمتهم ، ويلتفوا حول خالد بن يزيد ، وهو الاكبر بين اخوة معاوية الثاني ، لكنهم تفرقوا احزاباً وسعوا في سبيل مصالحهم الشخصية ، واتسع الخرق بين اليمانيين في الجنوب والقيسيين في الشمال

الازمة في العراق

وكان عبيد الله بن زياد امير العراقين على البصرة والكوفة ، وقد قبض على الحكم بيد من حديد منذ مقتل الحسين بن علي ، واضطر الناس الى طاعته اضطراراً ، فخضعوا قسراً وضعروا له السوء مترقبين الفرصة السانحة لرفع لواء العصيان واذكاء نار الفتن . وكان عبيدالله محنكاً بصيراً عارفاً بسرائر القوم ، وهي اشهر من ان تكتم وقد تحدث بها الناس ، وبلغ صداها عبيدالله عن لسان الشاعر ابن اخيه الحرث بن عباد بن زياد اذ كتب اليه منذراً : (١

الا يا عُبَيْدَ الله ، قد مات من به ملكتَ رقابَ العالمين ، يزيدُ
أتشبه القوم الذين وتَرْتهم وذاك من الرأي الزنيق بعيدُ !
وما لك غير الأزد جارٌ فإنهم اجاروا اباك ، والبلاد ، قيدُ

ومعنى كلامه ان عبيدالله بسط سيادته على العراق بقوة الامويين . اما ، وقد مات الخليفة ، والتبس امر الخلافة ، واضطرب حبل الامن ، ودبّ الشقاق في بني امية ، فما بقي على عبيدالله الا ان يختار بين الامرين : اما ان يهجر العراق الى الشام ، او يستجير بالأزد . والازد قبيلة موالية لبني امية حلت البصرة وقاتلت العلويين . فان استنجد عبيدالله بهم ، اعلن انفصاله عن اهل البصرة وصار هدفاً لعاداتهم فقاوموا عليه ، وشقوا عصا الطاعة وخلعوه عن الامارة . فدخلت اذن الازمة بطورها العصيب ؛ واشعر عبيدالله انه لا بد من

(١) راجع الدينوري : الاخبار الطوال ، ص : ٢٩٠

ان يخلي امارة العراقين او ان يستلين قلوب الجماعة . فرأى ان يدعوهم الى مؤتمر عام ، فيعرض لهم خطته بالحكم ، فيمهد السبيل الى التفاهم واياهم ، فيرضوا عليه ويجددوا له البيعة . فالتمس الحيلة الى ذلك بمناداته الصلاة جامعةً

الصلاة جامعة

كان المسلمون اذا ما توخوا النظر في امر خطير من شؤونهم المدنية ، يعقدون لها اجتماعات يقيمونها غالباً في جامعهم الاكبر يومَ الجمعة ، عند وقت الصلاة العامة ، حيث تحتشد الجموع ويخطب فيهم الخطباء . على ان الصلاة « جامعةً » لم تكن في بادئ الامر لتعقد يوم الجمعة فحسب ، ولم تكن لتقام في المساجد فقط ؛ وغرضها الخاص التداول في شؤون المملكة ؛ بل كانوا يقيمونها ايضاً في كل مكان الجأتهم الحاجة اليه . وانما اختاروا لها المساجد لرحبها وسعتها دون سائر البنايات

اما المدعوون الى الصلاة جامعةً فهم المسلمون المتمتعون بسائر الحقوق المدنية ، لهم الحق بالبيعة ، والعطاء ؛ وعليهم واجب الدفاع عن الامصار ، ومنهم « العرائف والمناكب والمقاتلة . » وكانوا اذا ما سمعوا مناداة الصلاة تهافتوا على مكان الاجتماع لئلا يؤاخذوا بالانشقاق عن الجماعة وبالتفريق بين المسلمين . ومن كان منهم يصلي بمعزل عن الجماعة كانت صلاته غير مقبولة ، وبهذا المعنى وصف الطبري الصلاة جامعةً على عهد عبيدالله ، فقال : (١)

« فصعد ابن زياد المنبر وخرج اصحابه معه فامرهم فجلسوا حوله قبل النساء وأمر عمرو ابن نافع فنادى : ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء او المناكب او المقاتلة صلى الغداة الا في المسجد فلم يكن له الا ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس ؛ ثم امر مناديه فاقام الصلاة »

اخلاق الحاكمين

وكان عبيدالله بن زياد في عز شبابه ، لم يبلغ من العمر ٣٥ سنة ، وكان

(١) الطبري : ٢ ، ٣٦٠ ، ٦

يعرف نظام الصلاة جامعةً واصول الاجتماعات والمناقشات العامّـة ، وهو أدرى بطباع العرب وكبريائهم ومفاخرتهم بحسبهم ونسبهم وعصبياتهم لاسيادهم ، وكل منهم اذا سُئل عن اصله كاد يفاخر بقول الحجاج بن يوسف لعبـد الملك بن مروان : « لم تلدني أمة ، بيني وبين آدم ، ما خلا هاجر » (١

او انتحل شعر من قال : (٢

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتًا ، دعائمه أعزُّ وأطولُ ؛
بيتًا بناه لنا المليك ؛ وما بنى حكمُ السماء ، فانه لا ينقل
بيتًا زوارة يُجتب بفنائه ، وبجاشعٌ ، وابو الفوارس نهشلُ

وان من يبالغ منهم العتوّ والكبرياء الى القول:

فضل العز عزنا حين يسمو مثل فضل السماء فوق السحاب (٣

هم اصاب عودًا من أن ينقادوا الى ارادة زعيم او يرتدعوا لرادع ، وكل منهم ينظر الى سيده شزرًا فيضمر له السوء اذا لم يجـاره على اهوائه ويقول محتجًا : (٤

« أيظلمهم قسرًا فتبًا لعيشه وكلُّ معاشٍ ، لا ابالك ، ظالمُ »

وكيف تخفى على عبيدالله حراجة موقفه في وسط جماعة قد أُوغرت صدورها عليه حقدًا ، وهو يعرف ما لتاريخ الخطابة عند العرب في مثل تلك الازمة من ذكريات تشهد للسامعين بالتعصب الاعمى وسرعة الانقلاب على زعيمهم ، وقد طالما حاول محمد نفسه في القرآن ان يكبح جماحهم ويطفئ نيران الحسد والمنافسة المتأججة في القلوب ، فيا هم يلتفتون لسماع النبي وللاهتمام في شؤون الامة ، وقد جاء في سورة الحجرات (٤٩ : ٢ ، ١١)

« لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر

---

١) الجاحظ : البيان ١ ، ١٨٠
٢) نقائض جرير والفرزدق ، وجه ١٨٢ ؛ Bevan ٣ ، ٢ ، ١
٣) اغاني : ٢١ ، ٩٧ ، ١٩
٤) الجاحظ : حيوان : ٣ ، ٥٠٢٥ .

بعضكم لبعض ... يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم... ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون »

وهو أدرى بان العرب اذا التفوا حول الخطيب ولم يرقهم كلامه هاجوا وماجوا عليه ، وربما أدت بهم الغباوة الى المجازفة بالحصا والحجارة ردًّا على الخطاب ، وأي خطيب يأمن شرهم ويسلم من نقمتهم ، وعمر بن الخطاب نفسه لم ينجُ من نقمة الناقمين حتى قتل « في المسجد بعد ما كبر » (١ فلذلك لما صعد عبيدالله المنبر ، جاءه الحصين ابن تميم قائلًا : « ان شئت صليتَ بالناس او يصلي بهم غيرك ، ودخلت أنت فصليت في القصر،فاني لا آمن ان ينتالك بعض أعدائك » (٢

السياسة ما وراء الحجاب — العثمانية

فتدبر عبيدالله الامر بحكمته ودهائه واول ما سعى به كان جمع المؤتمر ، لا في الكوفة حيث الاغلبية لحزب العلويين ، ولكن في البصرة وله فيها بين العثمانية قوم يناصرونه اذا ما امن التناهم معهم.

وكان العثمانية قوم بينهم وبين الخليفة عثمان رابطة الاسرة أو رابطة الولاء. وكانوا ناقمين على قاتلي عثمان ، فانتصروا للامويين على العلويين ، وبعضهم يزعم ان امي يدًا في مقتل عثمان فاضاع بها حقه من الخلافة.

وكان منهم جماعة وفدوا الى العراق واستقروا في البصرة ، وغيرهم اقاموا في الكوفة ثم نزحوا عنها قائلين : « لا نقيم في بلدٍ يُشتم فيه عثمان» (٣ فاليهم عمد عبيدالله ، وعليهم اتكل في ترجيح كفة الميزان الى جهة الامويين ، اذا ما انتصب الجدال في المؤتمر. ولم يغفل ان يضع في كفة ذلك الميزان مقادير المال ويرشو من لهم تأثير في الرأي العام ، فعمل ما يفعله في يومنا العمال اذا ما

١) حياة الاسلام : ٩٩،١ ٢) طبري: ٢٦٠،٢ ١١

٣) اسد الغابة : ٣٩٧،٣ ٩

فوّض اليهم الرشحون للوظائف امر ابتياع اصوات الناخبين.

قال الطبري : (٢ : ١٣٤-١٣٥)

« حدثنا الاسود بن شيبان عن خالد بن سمير ، ان شقيق بن ثور ومالك بن مسمع وحصين بن المنذر ، اتوا عبيد الله ليلاً ، وهو في دار . فباغ ذلك رجلاً من الحي من بني سدوس قال : « فانطلقت فلزمت دار الامارة »

فلبثوا معه حتى مضى عليه الليل ؛ ثم خرجوا ومعهم بغل موقر مالاً

قال : « فاتيت حصيناً فقلت : مر لي من هذا المال بشيء . » فقال : « عليك ببني عمك! »

فاتيت شقيقاً فقلت : « مر لي من هذا المال بشيء » (قال ، وعلى المال مولى له يقال له ايوب) فقال : « يا ايوب اعطه مائة درهم » قلت : « اما مائة درهم فوالله لا اقبلها . » فمكث عني ساعة وسار هنيهة . فاقبلت عليه فقلت : « مر لي من هذا المال بشيء » فقال : « يا ايوب اعطه مائتي درهم . » قلت : « لا اقبل والله مئتين . »

ثم امر لي بثلثمائة ثم باربعمائة . فلما انتهينا الى الطفاوة قلت : « مر لي بشيء »

قال : « ارأيت ! ان لم افعل ما انت صانع ؟ » قلت : « انطلق ، والله ، حتى اذا توسطت دور الحي ، وضعت اصبعي في اذني ، ثم صرخت باعلى صوتي : « يا معشر بكر بن وائل ، هذا شقيق بن ثور ، وحصين بن المنذر ، ومالك بن مسمع ، قد انطلقوا الى ابن زياد فاختلفوا في دمائكم » .

قال : « مالك ؟ قبحك الله به وقبل ! ويلك ، اعطه خمس مائة درهم . . . »

فمكث الرجل وقد تقاضى ٥٠٠ درهم على سكوته . واعلم ان شقيقاً وحصيناً ومالكاً كانوا من زعماء القوم وقادتهم . فلقيهم عبيدالله فأكاروا وشعروا فلا خطر عليه من معارضتهم اذا ما قام خطيباً في القوم على ان يستعطف الجماعة ويستميل قلوبهم .

خطاب عبيدالله بن زياد

رواه الطبري ولعله موجز . وهو ، على ايجازه ، آية من آيات الفن الآخذ بالباب الجماعة . استهله الخطيب بحمدالله وذكره ، ثم تخطى بكلام اطيف جذاب الى قلوب سامعيه ، فاثار فيهم الحمية القومية ، وانتمى اليهم كأنه يلتمس حمايتهم ، وقد ترك من اجلهم آله ووطنه « فصار منهم وفيهم . » وما اكثر ما نسمع هذه العبارة على افواه المتولين تدبير الشعب وحكمه ، خاصة اذا ما حانت ساعة الانتخابات ، قال :

« يا اهل البصرة انسبوني فوالله لتجدني اصاهر والدي ومولدي فيكم وداري . »

وان عبيدالله لعارف بمفاخرة البصريين بعددهم وعديدهم ، وانهم يستحسنون الخدمة في الجندية ، وهي لا تكلفهم سوى حمل السلاح للذود عن امصارهم اذا ما دُعوا الى ذلك ، وهم يتقاضون عليها الرواتب ، ويتراوح راتب المقاتل سنوياً بين ٩٠٠ و١٠٠٠ درهم ، فذكرهم بان عدد المقاتلة في امصارهم قد ازداد على ايامه فقال :

« وليتكم وما أُحصي ديوان مقاتلتكم الّا سبعين الف مقاتل ؛ ولقد أُحصي اليومَ ديوانُ مقاتلتكم ثمانين الفاً ؛ وما أُحصي ديوان عمالكم الّا تسعين الفاً ؛ ولقد أُحصي اليوم مئة واربعين الفاً »

وهل من صفات في الحاكم احب الى الرعية من محافظته على الامن وسعيه في سبيل عمران البلاد وغناها ؟ وهل من حنكة احق بالثناء من حنكة الزعيم الذي يبعد عن ذكر السامعين كل ما عساه ان يهيج الخواطر ؟ ولما كان عبيدالله عالماً بخوف العراقيين من الشام وجندها فلم يأتِ على ذكرها ، بل نوّه باسم يزيد تنويهاً لكنه نبّه السامعين الى ما اصطنعه في سبيل خيرهم وراحتهم وهو على ذلك لا يطلب الّا ثقتهم ومبايعتهم ، وهو مثقل واياهم في جميع الاحوال

« وما تركت لكم ذا ظنة اخافه عليكم الا وهو في سجنكم ؛ هذا وان امير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف اهل الشام ، وانتم اليوم اكثر الناس عدداً ، واعرضه فناء ، واغناه عن الناس واوسعُه بلاداً ، فاختاروا لانفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، فانا اول راضٍ من رضيتموه ، وتابع . فان اجتمع اهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ؛ وان كرهتم ذلك ، كنتم على جديلتكم ، حتى تعطوا حاجتكم فما بكم الى احد من اهل البلدان حاجة ، وما يستغني الناس عنكم » (١

فتحرك السامعون لهذا الكلام ، واستحسنوا الخطاب وتظاهر زعماؤهم

(١ طبري ٢ : ٣٣٣ — ٣٣٦

بالاعجاب ، وكان لهم خطباؤهم وتراجمة عواطفهم في مثل هذه المواقف فامروهم بالجواب. قال الطبري :

« فقامت خطباء اهل البصرة فقالوا : قد سمعنا مقالتك ايها الامير وانا والله ما نعلم احدًا اقوى عليها منك . فهلمَّ نبايعك »

وكأني بعبيدالله يبغي مساومتهم صدق نياتهم قبل مصافقتهم على البيعة فقال : « لا حاجة لي في ذلك فاختاروا لانفسكم » فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرروا ذلك عليه ثلث مرات فلما ابوا بسط يده فبايعوه »

وكان قد اعرب عن قصده تولي الامر باسمهم ، والسهر على توزيع المال والدفاع عن ذمار المسلمين

فقال : « ان الذي كنا نقاتل عن طاعته قد مات فان امرتموني جبيت فيئكم وقاتلت عدوكم »(١

بعد التيا والتي

ففرح القوم عند سماعهم هذا الكلام ، وايقنوا ببلوغ الارب بجزيل العطاء وقد اصبحت اموال المسلمين اموالهم ؛ فلا يرسل منها الى الشام ما يفضل عنها بالعراق ، بل يوزّع عليهم . فالامور اذًا تسير على رغائبهم وشهواتهم . الا انهم لم ينسبوا الفضل في ذلك الى اميرهم بل احتقروه لتواضعه لهم ، وافراطه بمجاملتهم وملاطفتهم . فانفرط عقد الصلاة جامعةً ، وخرج القوم ، وهم يتهامسون ويقولون : « لا يظن ابن مرجانة (٢ انا نستقاد له في الجماعة والفرقة ، كذب والله ، ثم وثبوا عليه »

وهكذا بعد التيا والتي اخفق الصائد واورق ، فخاب سعي الامير وتنازل عن الامارة ، وهرب من العراق الى الشام - فاضطرمت نار الفتنة في البصرة والكوفة

---

١) طبري ٢٢ : ٤٥٩ ٢) مرجانة : ام عبيد الله وكانت اميرةً فارسية